



حين يكون الحديث عن خليل الرحمن ومن خلال القرآن، فإنه حديث يأخذ بالأباب، ومجلس كهذا لا يُراد منه الإهاطة بحديث القرآن عنه، ولكن هي إشارة إلى آية واحدة فقط، جاءت ضمن تزكية الله له بقوله: {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصافات:84]، وهنا ينبغي لقارئ القرآن أن يطرح السؤال التالي: ما القلب السليم؟ الذي أتني الله به على خليله إبراهيم؟

وأقرب ما قيل في ذلك ما ذكره ابن القيم رحمه الله حين قال: «هو الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه، والتوكيل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتبعاد من سخطه بكل طريق»(1).

وابراهيم عليه السلام الذي جعله الله إماماً كان نقيّ السريرة، سليم القلب، شهد الله له بذلك: {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الصافات:84]، ولا شك أن إبراهيم عليه السلام الذي رأينا بعض صفاته وأفعاله وبلاءه، لا شك أنه يحمل قلباً سليماً خيراً.

لم يُنقل عنه أنه دعا على أحد من أعدائه، برغم الأذى الذي ناله، بل المنقول دعاؤه لهم: {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [إبراهيم:36]، أما دعاؤه للمؤمنين فما أكثره في القرآن والسنة، ودعاؤه لأهل مكة بالبركة مشهور معروف، حتى إننا نرى أثره اليوم.

ومما يظهر سلامه قلبه عليه السلام دعاؤه لأبيه حتى تبين له أنه عدو لله، فلما تبين أنه عدو لله تبرأ منه.

ومن تأمل سيرته وجد سلامه قلبه عليه السلام في حواراته ومناقشاته وبُعده عن حَظِّ النفس، فقد كان يدرك عليه السلام ما لسلامة القلب من الأثر، بل كان ذلك همه؛ ولهذا لما دعا قال: {وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبَعَّثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:98 - 78]، وكلنا نحتاج إلى ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم.

فيما معاشر الدعاة والمربّين! ربو الأجيال على طهارة القلوب وسلامتها من أدواتها، من الغل والحسد والبغى حتى على الخصوم! وأقول: بعض المنتسبين إلى الدعوة والعلم - هداهم الله - يربون أجيالاً على الحقد والبغض، يلوثون قلوب الناشئة ببعض علمائهم ودعاة الإسلام الذين بين أظهرهم، فليتهم يسيرون مع إخوانهم من المسلمين بسيرة إبراهيم مع أعدائه! لم يُؤثّر

عنه عليه السلام أنه دعا على أحدٍ من قومه، بل تجد منه الدُّعاء بالهداية، والرغبة في استقامتهم، تجد عِفَة اللسان، تجد الحكمة.

فانظر إلى قلبك أخي الإسلام! فأنت وحدك دون الناس من يبصره! قد ينظر الناس إلى هيئتك، إلى عملك، إلى تصرفاتك، إلى سلوكك، لكنهم لا يرون ما انطوى عليه قلبك، فانظر أنت إلى قلبك وفتشه، هل فيه غِش؟ هل فيه حِقد؟ هل فيه مرض؟ قبل أن يجيء العرض على ربك الذي لا تخفي عليه خافية {يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِنُ} [الطارق:9] هناك {وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ} [العاديات:10].

واعلم أنَّ سلامة القلب غُنم لك في العاجل والآجل، ولقد رأيْتُ عدداً من النَّاس ممن عُرِفُوا بمسامحة الناس وسلامة الصدر، رأيْتُهم يعيشون في راحة بالٍ وسعادةٍ وهناء.

والملخص فتش قلبك، وانظر حالك، وحذر حذار من أن تتطوّي نفسك على الحِقد والغِل والحسد وأمراض القلب وأدواتها، فإنها قد تقضي على صاحبها في الدنيا، فما بالك في الآخرة؟

ولن ينجو في الآخرة إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم، أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم.

(1) إغاثة اللهفان: ص7

المسلم

المصادر: